المبحث الثالث

الملك عبد العزيز يقيم المملكة العربيّة السعوديّة « الإسلاميَّة »

اضمحلّت الدولة السعوديّة الثانية ، وعادت الجزيرة العربيّة إلى اضطرابها السياسي وفتنها المتنوّعة وإماراتها المتناحرة .

ودخل القرنان الرابع عشر الهجري والعشرون الميلادي ، وحدثتْ متغيّراتٌ دوليّةٌ كبيرةٌ تحيط بالجزيرة العربيّة ، وتستهدف الإسلام في الصميم ، وتنذر ملامحها بنكبات مصيريّة لمجتمعات المسلمين :

- الدولة العثمانيّة المهترئة تفسّخت تحت كيد العصابات المارقة والجماعات التي تمت تربيتها في الخارج .
- الغرب المتقدّم مدنيّاً على المسلمين صار يزداد تقدّماً في المجال العسكري – بالذات – ويزيد الهوّة الفاصلة بينه وبين المسلمين ، ويستثمرّ هذا التقدّم في السيطرة على هؤلاء المسلمين ، واستعباد مجتمعاتهم ، ومحاربة دينهم من خلال اقتسام تراث الدولة الفانية .
- العرب في حالة تيه واستخذاء أمام الغرب ، وانفعال بالظاهرة القوميّة الغربيّة اقتداءً ، وبالقوميّة التركيّةً مضادّةً .
- انبهار المسلمين بالغرب وبالذات في نظرياتهم السياسية التي انطلقتْ من مبدأ إبعاد الدين عن السلطة والدولة ، والتي تبرز بصفتها وسيلةً لتحقيق الحريّة والعدالة والمساواة في مقابل الصورة المشوّهة للحكم عند المسلمين من أنه وسيلة الاستبداد أو أنَّ تبنِّي الدولة للدين يولّد الطائفيّة .
- شعورٌ عامٌ يدعمه سير الأحداث بأنه لا يوجد بصيصٌ من الأمل للإسلام وأهله يفلت به من المصير الذي يُدحرج إليه بجهلٍ من أهله ، وشماتة وحقدٍ من أعدائه .

في ظلّ هذه الأوضاع ومقدّماتها في نهاية العقد الثاني من القرن الرابع عشر الهجري ، ظهر شخصٌ - فردٌ - يرفع راية الحلّ الإسلامي ، ويتقدّم حركيّاً لتحقيق هذا الحلّ ، متحرّراً من عقد تلك المتغيّرات الرّهيبة .

هذا الشخص ليس من الحواضر الثقافيّة في العالم الإسلامي ، ولم يعش الأسلوب الغربي الذي أصبح المثل الأعلى - بل الممكن الوحيد - لكلّ نهضة وطالب نهضة في روع كثيرٍ من المسلمين آنذاك ، إنه من " نجد " في وسطً الجزيرة العربيّة .

من غراس الدعوة السلفيّة التي أشرقت في الجزيرة العربية ومن أحفاد رجال الدولة التي حملتْ هذه الدعوة وتمثّلتها " دولة آل سعود " إنّه : عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركي بن عبد الله ابن الإمام محمّد بن سعود القائم بالدعوة السلفيّة مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب .

ولد عبد العزيز بن عبد الرحمن عام ١٢٩٣هـ في الرياض ، وتعلّم القراءة والكتابة، وختم القرآن قراءةً ، ثمّ تلقّى بعض أصول العلم الشرعي على الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ ، خرج مع والده عبد الرحمن عام (١٣٠٨هـ) وعمره خمس عشرة سنةً بعد أن يئس والده من إعادة الملك السعودي في ظلّ أوضاعه الراهنة آنذاك ، عاش في البادية فترةً ، ثم استقرّ في الكويت منذ عام (١٣١٠هـ) .

وفي عام (١٣١٩هـ) جاء من الكويت فيما يقارب الستين من آل سعود والموالين لهم للوثبة التاريخيّة التي ستكون مفتاح باب التغيير في الجزيرة العربيّةً وهي « فتح الرّياض » حيث تمّ فتحها بحركة بطوليّة ما تزال مثار دهشة الدارسين وإعجابهم .

فُتحت الرياض وأُعْلِنَ الملْك فيها لعبد العزيز في ٥/ ١٠/ ١٣١٩هـ وانطلقت من الرياض بقيادة الملك عبد العزيز حركة التحرير والتوحيد ، ثمّ البناء والتشييد للمجتمع الكبير في الجزيرة العربيّة الذي سيصبح « المملكة العربيّة السعوديّة » ، حيث استطاع بتوفيق الله له أن ينقذ أجزاء هذه الجزيرة التي كانت تتبع " تركيا " مباشرةً كالأحساء ، أو بالتبعيّة كشمال المملكة والحجاز من نتيجة انهيارها الذي وقعتْ فيها البلدان العربيّة الأخرى ، حيث اقتسمها المستعمرون الغربيّون بصفتها تراثاً للدولة المنهارة .

لقد قامت في هذه الأجزاء التي وحّدها عبد العزيز دولةٌ حرّةٌ مستقلّةٌ صريحةٌ في إسلامها وعروبتها ، بين طوفان الدول التي إمّا أنها مستعمرةٌ للأعداء لا تملك حرّيّةً ولا استقلالاً ، وهي عامة الدول العربيّة بالذات ، أو أنها مولودٌ مشوّهٌ ، وهي دولة تركيا ، التي أعلنتْ خلع الإسلام في مهد الخلافة الإسلاميّة ومجتمع المسلمين .

لن أتحدّث عن المسيرة الجهاديّة لتوحيد لجزيرة ، وإنما سأقتصر على نقطتين علّهما تكفيان لإبراز تكوين الملك عبد العزيز لدولةٍ إسلاميّةٍ في العصر الحاضر .

النقطة الأولى : هي شخصيّة الملك عبد العزيز ؛ لأنّ الدولة التي أنشأها عبد العزيز كانت دولةَ شخصيّة أكثر منها دولة مؤسسات خلال عموم حياته ، فالتعرّف على شخصيّته يؤدّي إلى معرفة هذه الدولة .

النقطة الثانية : مقوّمات التكوين السياسي لدولة الملك عبد العزيز المتمثّلة ببناء الذاتيّة ، والشرعيّة ، وتحقيق الانصهار ، والمشاركة ، والتطوير المناسب .

النقطة الأولى : شخصيّة صانع الدولة الملك عبد العزيز رحمه الله

إنّ إيجاد دولة في قارة صحراويّة شاسعة الأرجاء ، متباعدة الأقاليم ، ثمّ بناء هذه الدولة اجتماعياً وسياسيّاً ودوليّاً من قبل شخص ، دليلٌ على عظمة شخصيّته واستكمالها عناصر التفوّق الفطريّة والكسبيّة .

وهذه هي شخصيّة الملك عبد العزيز رحمه الله وبذلك شهد كلّ من لقيه وعاشره من الناس ، سواء كانوا من العامة أو من المثقفين أو السياسيين العرب أو الأجانب .

ففي الجانب الإيماني : استوعب -رحمه الله- دعوة التوحيد الغضّة ، وهي الدعوة التي تصوغ شخصيّة الإنسان وفق التعاليم التي جاء بها القرآن الكريم والسنة ، فتجعلها شخصيّةً إسلاميّةً متكاملةً حيّةً إيجابيّةً نموذجها العملي شخصيّة الرّسول ﷺ وشخصيّات أصحابه من بعده .

ولم يكن هذا الإيمان مجرّد تلقين تلقّاه في الصغر ثمّ عفتْ عليه دراساته التالية وثقافته المتنامية ، فأصبح مجرّد حنين إلى ذلك البرد الإيماني الذي نعم به فترةً مّا .

لقد كان الملك عبد العزيز ملازماً للعلم الشرعي في كلّ فترات حياته ، وكان له مجلسٌ بعد العشاء يتلى فيه فصولٌ من كتب مختلفة في الفقه والتفسير ، ومما يذكر خير الدين الزركلي أنه سمع في مجلسه تفسير القرطبي ، والبداية والنهاية لابن كثير ، والآداب الشرعيّة لابن مفلح .

وكان حتّى في أسفاره وغزواته لا ينسى أن يستدعي بين الفينة والأخرى بعض العلماء المصاحبين له لاقتناص بعض الفوائد العلميّة ، ولقد تبلور هذا الإيمان العميق لدى الملك عبد العزيز في صفاء عقديٍّ جعله يطهّر بلاده من كلّ

البدع ، ويظلّ حسّاساً تجاه أيّ ثغرة شركيّة ولو كانت بسيطةً في عرف بعض الناس . في اجتماعه بالملك فيصل بن الحسين – ملك العراق – أراد فيصل تأكيد أمرٍ ، فقال : وحياة رأسك ، فنظر إليه عبد العزيز ، وقال : قل : والله[1] .

كما تبلور في برنامج تعبّديٍّ يتمثّل في أذكار وتهجّد وقراءة للقرآن وحرصٍ على الالتزام بسنن العبادات .

يقول الزركلي في الوجيز : « اعتاد أن يستيقظ قبل الفجر بنحو ساعةٍ فيقرأ سوراً من القرآن ، ويتعبّد ويتهجّد ، وكثيراً ما يسمع له نشيجٌ ، ويستمرّ إلى أن يؤذن الفجر ، فيصلّي الصبح مع الجماعة ، ويسبّح ويقرأ وِردَ الصباح »[2] .

ولقد كان –رحمه الله– واعياً قيمة إيمانه ، واثقاً بأنّ قيمته فوق كلّ القيم الأخرى حتى ما يباهي به الغرب من فلسفات ونظريّات والمتأثرون بهم ، فلم يكن يشعر بالنقص أو يتخفّى بإيمانه واعتقاده ، وإنما كان يعلن أنّ إيمانه بالله هو قيمة وجوده ، وهو سبب انتصاره ، وأنّ ضياع العرب إنّما هو لتخلّيهم عن هذا الإيمان بصورته الناصعة ، وأنه سيظلّ ملتزماً بإيمانه ، داعياً إليه[3] .

وعندما تبجّح مرّةً عنده " فيلبي " ببعض قدرات الغرب العلميّة في العلوم التقنيّة قال –رحمه الله– : « لا شيء يفرق الإنسان عن الحيوان إلاّ الإيمان بالله والعالم الآخر ؛ أمّا ما عدا ذلك فالإنسان والحيوان فيه سواءٌ »[4] .

---

(١) الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز ، خير الدين الزركلي ، ص ١٨٥ ، الطبعة الثامنة ، ١٩٩٦م .

(٢) المصدر السابق ، ص ١٨١ .

(٣) قال في خطبة له : « أنا مبشّرٌ أدعو لدين الإسلام ولنشره بين الأقوام » ، « أنا داعيةٌ لعقيدة السلف الصالح ، وهي التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما جاء عن الخلفاء الراشدين . . . » إلخ . انظر : المرجع السابق ، ص ٢١٦ .

(٤) السعوديون والحل الإسلامي ، ص ٤٦ .

كان يعلن إيمانيّة دولته واعتمادها على القرآن والسنة ويتابع شؤون هذه الدولة لتبقى ملتزمةً بتعاليم هذين المصدرين ، وهكذا لم تبق شخصيّته حاملاً لهذا الإيمان النّقيّ فحسب ، وإنما مفيضة هذا الإيمان على الدوائر المحيطة به ، والتي تتسع لتشمل دولته كلّها .

وفي الجانب الفكري : كان هناك ثلاثة عوامل تشكّلت منها شخصيّته الفكريّة :

أوّلها : ما يمتلكه من صفاء فطريٍّ ومن قوّة حدسٍ تصل إلى حدّ العبقريّة التي أدركها كلّ من حاوره وجالسه ، فـ « ابن سعود -كما يقول برت فيش الوزير الأمريكي المفوّض- عبقريٌّ قويُّ الإرادة شديد الذكاء»[1] . وهذه منحةٌ إلهيّةٌ لا كسبيّة .

ثانيها : متابعاته العلميّة ، فهو محبٌّ للمعرفة ، طالب نهم للعلم ، يخصّص - كما سبق - أوقاتاً لقراءة أمهات الكتب في العلوم الشرعيّة والأدبيّة ، وقد واصل هذا المنهج إلى آخر حياته ، كما أنه كثيراً ما يثير في مجالسه قضايا يشعر بأنها تهمّه فكريّاً أو واقعيّاً ، ويتعرّف الحكم الشرعي فيها ، أو الحلّ الأنسب لها .

ثالثاً : الخبرة الحياتيّة ، حيث عانى كلّ متناقضات الحياة وتقلّب في مختلف ظروفها ، وكان -كما تدلّ عليه تأملاته وكلماته - ذا وعيٍ بالأحداث واعتبارٍ بنتائجها ، ودراسةٍ لسننها .

هذه العوامل كونت من الملك عبد العزيز شخصيّةً فكريّةً تحتلّ مقام الأستاذيّة في مختلف الجوانب :

---

(١) الملك عبد العزيز - رؤية عالميّة ، ساعد العرابي الحارثي ، ص ١٥٧ ، ط٢ ، دار القمم للإعلام .

فالذي يسمع مناقشاته في القضايا الشرعيّة ، وخطبه المشتملة على الآيات والأحاديث الصحيحة والقضايا العقديّة والشرعيّة يجد أنه أمام عالمٍ شرعيٍّ لا حاكمٍ مشغولٍ بالسياسة والملك .

والذي يتأمل في كثرة الأمثال العربيّة في أحاديثه وبعض محاوراته مع أهل الفكر والأدب[1] ، وما تدل عليه من اختزان واستحضار للتراث الأدبي يقول كما قال عبد الله فيلبي : « إنّ جلالة الملكً ابن سعود حاكمٌ مثقّفٌ لم يقدر للبلاد العربيّة أن تحظى بمثله في غير الشاذ النادر من المرات »[2] .

ومن جوانب النفاذ الفكري في تعامله مع القضايا – التي لحظها كثيرٌ من الغربيين في تعاملهم معه – أنه يسلك مسلك التحليل واستيعاب أساس القضية وتقسيم الشيء إلى عناصر ، وكلّ عنصر إلى فروع ، وهي دلالةٌ على قدرة فكريّة سامية يحتاج كثيرٌ من البالغين في العلم شأواً إلى المران عليها ، وإلزام أنفسهم بها حتى تكون بحوثهم علميةً منتجةً .

يقول " كنت وليمز " متحدّثاً عن عبد العزيز : « إنّ ابن سعود يُظهر مقدرةً عجيبةً في أحاديثه . . وهو إذا تكلّم تدفّق كالسيل ، يحبّ التحليل وردّ الشيء إلى أصله ، شديد الولع بتشريح المواضيع تشريحاً يدلّ على ذكاءٍ وفطنةٍ ولباقةٍ »[3] .

وفي الموضع نفسه يقول البريطاني السير " ريد بولارد " : « محاورته – الملك عبد العزيز – مثيرةٌ للاهتمام ، وأقواله مناسبةٌ للمقام ، وكثيراً ما يقول :

---

(١) انظر شيئاً من ذلك في بعض محاورات الريحاني معه ، السعوديون والحل الإسلامي ، ص ٤٧ .

(٢) الملك عبد العزيز – رؤية عالميّة ، ساعد الحارثي ، ص ١٤٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢١٧ .

إنّ الموضوع الذي يتناوله الحديث يقسَّم إلى ثلاثة أقسامٍ ، ثمّ يمضي في تقسيم كلّ قسمٍ إلى أقسامٍ فرعيّة أخرى ، وهكذا ، ولكنّ ذلك لم يؤثّر في منطقه القويم ، واستنتاجاته الصائبة »[1] .

وحسبنا شاهداً - نموذجاً - على الوعي الفكري الذي سبق به الآخرين الموقف المتميّز الذي تبنّاه من الغرب بصفته حضارةً مشحونةً بالفلسفات والثقافات والمعارف التقنيّة والتجارب السياسية ، إذ لم يكنْ موقفه إهمالها جملةً وتفصيلاً ، أو ازدراءها لعدائها للإسلام ، أو الانبهار بها واتّخاذها قبلةً ، والتعويل عليها في إعادة الحياة لشعبه ، أو غير ذلك من المواقف الارتجاليّة التي أخذ بكلٍّ منها بعض المسلمين من فئة الحكام أو العلماء أو المثقّفين أو حتى العامة .

إنّ موقفه - رحمه الله - هو رفض فلسفاتها الملحدة ، ونظرياتها الضالة ، ويقينه بأنّ ما جاء به الإسلام من تصوّرٍ للوجود وتشريعٍ للحياة هو الحقّ ، وبه المصلحة ونهضة الأمة .

وهو في الوقت نفسه الاعتراف بأنّ ما حقّقه الغرب من إنجاز تكنولوجيٍّ جانب تفوّقٍ للغرب ينبغي على المسلمين أن يأخذوا به ، وينافسوا غيرهم في مضماره .

بل والاعتراف بأنّ لديهم في مجال تنظيم الحياة أفكاراً ومسالك اجتماعيّةً صحيحةً فيها مصالح الناس .

« إنّ الناس - يقول الملك عبد العزيز رحمه الله - الذين لا نشكّ أنّ الله عالمٌ بقلوبهم ، وأنهم أعداء بعضهم لبعضٍ كما قال تعالى : ﴿ **تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ** ﴾[2] قد بلغوا بالشورى مراتبَ عاليةً في الدنيا ، ونحن المسلمين

---

(١) الملك عبد العزيز - رؤية عالمية، ص ٢١٧ .

(٢) الآية رقم (١٤) من سورة الحشر .

أمرنا الله بالمشورة ، والمشورة لها أساس وهو النصح بالتزام الحقّ »[1] .

لقد عانى في هذا المجال (التعامل مع الحضارة الغربيّة) في مجتمعٍ كان منغلقاً على نفسه، فلم يستجب لطلب التفاعل معها حتى من الزاوية الإيجابيّة .

كما عانى في موقفه الرافض لفلسفة الغرب الملحدة أو المخالفة لمنهج الإسلام في ظلّ عالم - يحيط به- واقعٍ تحت سيطرة الاستعمار الغربي ، وأغلب من يقوده فكرياً من أبنائه أناسٌ خدعهم وهج تلك الحضارة، فنفروا من دينهم ونفّروا الناس من كلّ ملتزمٍ بالدين محتمٍ بظلاله .

ولكنه للوضوح الفكري لديه للقضيّة (قضيّة الموقف من هذه الحضارة في ميزان الإسلام) كافح وغالب حتى أثبت في آخر الأمر ، وحتى بعد وفاته صواب منهجه وخطأ المناهج الأخرى .

وأما في الجانب السياسي : فإنّ مسيرة حياته كلّها موحّداً للجزيرة وبانياً للدولة، وموطّداً دعائمها، ومتّخذاً سبل التنمية التي ترقى بها ، كلّ ذلك في ظلّ أوضاعٍ محلّية وعالميّة غير مساعدة ، بل هي في الحقيقة معاكسةٌ لحركته ، ومع ذلك ينجح بتوفيق اللهً ويحقّق طموحاته .

- إنّ هذه المسيرة كافيةٌ للبرهنة على المهارة السياسيّة التي كان يتسم بها، والتي يقيم عليها كلّ حساباته ، وخططه وعلاقاته سلماً وحرباً .

وإنّ في خطبه التي يوجّهها لشعبه لنصحهم والارتقاء بفكرهم ما يؤكّد هذه المهارة السياسيّة في نظرته للأمور :

في بيان الأسباب التي تكون مسامير في نعش الدولة واستقرارها ، وسبباً

---

(١) السعوديون والحل الإسلامي ، ص ٣٧.

في ضياع الملك، يقول -رحمه الله -: « متى اتفق العلماء والأمراء على أن يستر كلّ منهم على الآخر، فيمنح الأمير الرواتب، والعلماء يدلّسون ويتملقون ضاعتْ أمور الناس ، وفقدنا والعياذ بالله الآخرة والأولى » .

ويؤكّد هذا المعنى ويقول في خطاب له : « لا يفسد الملك إلا الملوك وأحفادهم وخدّامهم والعلماء وأعوانهم ، وإنّي والله لا أودُّ أن أكون منهم »[1] .

وفي حديث له عن المسلمين واستخذائهم أمام الكفار ، وتناحرهم فيما بينهم يبيّن أنّ المسلمين هم سبب بلاء أنفسهم ، ويعدد عِلَلَهم يقول : « إنّ المسلمين متفرّقون اليوم طرائق بسبب إهمالهم العمل بكتاب الله وسنّة رسوله، ومن خطل الرأي الذهاب إلى أنّ الأجانب هم سبب هذه التفرقة وهذه المصائب.

إنّ سبب بلايانا من أنفسنا لا من جانب الأجانب ، والله إنّي لا أخشى الأجانب بقدر ما أخشى المسلمين، إنّي أخاف من المسلمين أكثر مما أخاف من الأجانب ، فالمسلمون هم بلاء أنفسهم ، يأتي أجنبيٌّ إلى بلد ما فيه المئات بل الألوف بل الملايين من المسلمين فيعمل عمله بمفرده ، فهل يعقل أنّ فرداً في مقدوره أن يؤثّر على ملايين من الناس إذا لم يكن له بين هذه الملايين أعوانٌ يساعدونه، ويمدّونه بآرائهم وأعمالهم . . ، هؤلاء الأعوان هم سبب بليّتنا ومصيبتنا .

أجل، إنّ هؤلاء الأعوان هم أعداء الله وأعداء أنفسهم، إذاً فاللوم والعتاب

---

(١) يعلن محمد كشك بعد إيراد هذا الكلام بأنّ الملك عبد العزيز قد استوعب مقدّمة ابن خلدون التي ذكر أنّ الجيل الثالث هو الذي يبدّد الملك ، وأقول : ربما يكون للملك اطّلاعٌ على المقدّمة ذاتها أو بنقلٍ عنها ، ولكن ربما -وهو الأرجح - أنه أدرك ذلك بحسّه السياسي وحدسه التاريخي .

واقعٌ على المسلمين وحدهم لا على الأجانب »[1] . يتحدّث شكيب أرسلان أمير البيان العربي عن شخصيّة الملك عبد العزيز السياسيّة فيقول : « قرأت كثيراً من الأحاديث والأجوبة التي يفضي بها ابن سعود إلى بعض الصحافيين سواءً كانوا عرباً أو أجانب فلم أجد هذا الملك تهوّر مرّةً واحدةً في حديث، أو تكلّم بكلامٍ يؤخذ عليه، أو شرح بما يمكن الخصم أن يتخذه عليه حجّة، بل تجده إذا تكلّم في معنًى سياسيٍّ يصرّح بما يريد بدون موارباةٍ ، ولكنّه لا يجعل نفسه في قفصٍ »[2] .

إنّ رفضه إغراءات التدخّل في قضايا بلادٍ أخرى وضمّها إلى ملكه لطلب بعض أهل تلك البلاد وإن ساعدهم على مقاومة الاستعمار وحمل همّهم دوليّاً، وإنّ دعوته لتكون الحرب عام ١٩٤٨م حرباً شعبيّة يدعم فيها أهل فلسطين بالسلاح لا حرباً رسميّة تتحكّم فيها قراراتٌ دوليّةٌ، وإنّ علاجه للمشكلة القبليّة وتحويل الولاء منها إلى ولاءٍ للدين ثم الوطن ، مما قضى على منهج التناحر الداخلي إلى التعاون والبناء .

إن كل هذه المواقف وغيرها نتيجة لتلك الشخصيّة السّياسيّة التي تتعامل مع الأحداث بعمقٍ وبُعد نظرٍ قد يقصر عن استيعابه الكثيرون في وقته، لكن الأيام تثبت صحّته .

وبعد هذا فإنه قد توفّر في الملك عبد العزيز من الصّفات الإنسانيّة والقيم السّامية والخلال الشخصيّة الحميدة التي برزت في تعامله مع الآخرين ، ما جعل هؤلاء الناس يتحدّثون عن شخصيّته وكأنّه أسطورةٌ في عالمٍ عربيٍّ قلّ إنجابُه لذوي الهمم العبقرية والشخصيات المتفوّقة .

---

(١) السعوديون والحل الإسلامي ، ص ٢٩ .

(٢) الملك عبد العزيز – رؤية عالمية ، ص ١٩٥ .

وإليك نماذج مختصرة قدر الإمكان لقليلٍ من الشّهادات الكثيرة عن تكامل شخصيّة الملك عبد العزيز التي وهبه الله خصائصها المتميّزة لتكون معينةً له في القيام بدوره التاريخي العظيم الذي قام به .

بقول الأستاذ عبد الوهاب عزام : « لَمَّا تشرفتُ بلقاء الملك عبد العزيز رأيتُ فيه مثلاً للعروبة في حالتها الفطرية ، تتجلّى فيه المعاني التي برزت في حياتهم ، وأوّل هذه المعاني العزّة والثّقة بالنّفس وما ينطوي على ذلك من عقيدة في سموّ القوم الذين ينتسب إليهم ، فكل شيء في نظره هو دون المستوى الذي ترسِّخه العروبة [لعل الأوْلى أن يقال : الإسلام] في خاطره ، والملك عبد العزيز في ذلك ككلِّ عربيٍّ لم تلوثه الحضارة الغربيّة يعتقد أن العزة لله ثم له ، فمعنى النقص المركب لا يخطر بباله» (١) .

ويقول أمين الرّيحاني الذي خبر زعماء العرب في عصر الملك عبد العزيز عن قربٍ ثم جالسه وعرفه : « إنّ ابن سعودٍ كبيرٌ حقاً ؛ كبيرٌ في مصافحته وفي ابتسامته وفي كلامه وفي نظراته وفي ضربه الأرض بعصاه ، يعرف نفسه ويثق بعد الله بنفسه " حنّا العرب " ، إن الرّجل فيه أكبر من السّلطان ، وقد ساد قومه ولاشك بالمكارم لا بالألقاب . إنه رجلٌ تجسمت فيه فضائل العرب إلى حدٍّ يندر في غيره من الملوك الذين زينتْ آثارهم شعرنا وتاريخنا »(٢) .

هذه القيم الإيمانيّة والفكريّة والسياسيّة والشخصيّة التي اجتمعت في الملك عبد العزيز هي السّرُّ الذي استطاع به -رحمه الله- بعد توفيق الله تحقيق ما حقق من نصرٍ وتمكينٍ وإنجاز يُعدُّ خياليًا بالمقاييس المعتادة في دنيا الناس ، وسرُّ هذه القيم في تحقيقها تلكَ الغايات السّامية هي : أنها جمعت لصاحبها

(١) الملك عبد العزيز - رؤية عالمية ، ص ٨٧ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

بين طلب رضا الله والإتيان بشرطه الذي شرطه على عباده لكي يحقق لهم النصر والتمكين، وبين الاستحواذ على قلوب الأمّة التي قام فيها مجاهداً وداعياً ؛ لأنه بقيمه تلك يمثل بالنسبة لهم صورة مثالية تهفو إليها نُفوسُهم ، وتُجلِّهَا قُلوبُهم حتى وإن قصَّرَ الكثيرُ منهم عن السبق فيها .

يقول العقاد -رحمه الله- وهو يحلل سر اندماج الشّعب السّعودي في شخصية الملك عبد العزيز بل وكلّ مسلمٍ عرف عبد العزيز وجهوده : « بَطَلُ الأمّة من الأمم هو الرّجل الذي يستجمع في شخصه صفاتها ومزاياها على أتَمِّها وأوضحها وأقواها، فهو مرشَّحٌ بالفطرة لحكمها وقيادتها، وهو في هذه إنّما يحكمها بنفسها ، وبمحض إرادتها حين يحكمها بأبرز صفاتها وأقوى مزاياها. والملك عبد العزيز يجمع في شخصه تلك الصفات والمزايا التي اشتهرت بها أمّة العرب من قديم الزمان ، فيدين له رعاياه؛ لأنّهم يدينون لصفاتهم ومزاياهم »[1] .

فليس أحرى من الملك عبد العزيز بسجاياه تلك أن يقيم دولته المتفرّدة في القرن العشرين ، هذه الدولة التي تجمع أجلَّ خاصيتين ضعفتا في كثير من دوَلِ المسلمين بل عموم حياتهم قروناً طويلةً، وهما :

- الإسلاميّة بمعناها الشمولي لكل جوانب الحياة، وبمفهومها الأصفى المتمثل بالمنهج الذي سار عليه الرسول ﷺ وصحابته الكرام دون المناهج المبتدعة الأخرى .

- الأصالة العربية بما فيها من شيم الإباء والعزة والثّقة بالنّفس والحريّة والترفع عن الدنايا ، والمنافسة في بذل المعروف، وأهم شيءٍ في هذه

(١) الملك عبد العزيز - رؤية عالمية، ص ١١٩ .

الأصالة هو ركونها إلى الإسلام في طلب الظهور والنهضة دون الاستجداء من الآخرين، ممّا يفسد الحياة، ويُذيب هذه الأصالة حتى تنعكس تلك الشيم إلى أضدادها لدى الذين خَلَّفوا الإسلام وراء ظهورهم، وعَوَّلوا في طلب مَجْدِ عروبتهم على ما زادهم ذلاً، وأفسد نفوسهم وحياتهم.

النقطة الثانية: مقومات التكوين السياسي لدولة الملك عبد العزيز رحمه الله

أقصد بهذه المقوّمات العناصر التي لا يمكن أن ينتج التكوين السياسي بناءَ دولة متماسكة إلا بالوفاء بها بحيث إنّ الخَلَل فيها أو في بعضها يمثّل أزمةً تواجه بانيَ الدولة، وقد تهزّ بناءها فيضطرب، ولهذا يسمّي بعض أساتذة العلوم السّياسيّة هذه المقوّمات بـ« أزمات التطوّر السياسي » التي تواجه الأمة في بناء الدولة، فتكون تحدّياً حقيقيّاً لها.

وإليك أهمّ هذه المقوّمات ومنهج الملك عبد العزيز -رحمه الله- في الوفاء بها لدولته وتوقّي أيّ أزمة في مجالها:

* **المقوِّم الأول**: (الانتماء):

يراد بهذا المقوّم تحويل صور الانتماء المحدودة بالقبيلة أو الإقليم أو المصلحة الشخصيّة الفرديّة، إلى صورة أوسع وأعمق إلى الانتماء للدولة ومنحها الولاء بما يتضمّنه من حبٍّ ونصرٍ وتضحيةٍ ومواقف فكريّةٍ وسلوكيّةٍ.

ولا ريب أنّ الدولة التي لا تستطيع تحويل انتماء مواطنيها لها، وغرس الولاء في نفوسهم لها ستخسر هيبتها واحترامها، وسيعيش أفرادها حالة اغتراب أو بقاء على انتماءاتهم الطائفيّة أو الإقليميّة أو القبليّة، التي لا تلبث أن تثور نَعَرَاتُها عند أوهى الأحداث، فينبعث الصّراع بين هذه القوى دون أيّ

اعتبارٍ للدولة كما يحدث الآن في بعض دول أفريقيا وغيرها .

لقد كانت الانتماءاتُ القبليّة والإقليميّة قائمةً قبل توحيد الملك عبد العزيز للمملكة، وكان يمكن أن تبقى نتيجة رسوخها في النفوس ، ولكنّه -رحمه الله- بحنكته السّياسيّة استطاع أن يرتقي بوعي شعبه الدّيني والحضاري ، وأن يبلور موقع الدولة وقيمة الحكم في المجتمع حتى حوّل تلك الانتماءات الجزئيّة إلى انتماء للدولة، وشعورٍ بحقّها على الفرد يتجاوز الشعور الوطني الباهت إلى إيمانٍ بأن الانتماء إليها والولاء لها قيمةٌ تعبّديّةٌ يتديّن بها الشخص لله .

ولم تمارس الدولة مع تلك الانتماءات الجزئيّة معركة صراعٍ ومضادّةٍ ، لكنّها احتوتها في ظلّ دولةٍ تحتضن أفرادها احتضاناً .

قد تثار هنا مشكلة القطريّة ومدى تنافيها مع الوحدة القوميّة للعرب أو مع الانتماء للأمّة الإسلاميّة .

والحقّ أنّ هذا الإشكال غير وارد في تجربة المملكة ؛ لأنّ مفهوم الولاء للدولة لدى السعودي ليس مبنيّاً على فلسفة « المواطنة » الغربيّة ، ولكنّه مبنيٌّ على منهج الإسلام الذي يربط الفرد من الرّعيّة بحاكمه المسلم نصحاً وطاعةً له في المعروف وجهاداً معه ، والذي يجمع بين ولائه للأقربين في وطنه ، وولائه لإخوانه المسلمين في كلّ مكان حبّاً لهم ، وسعياً لنصرهم، وفرحاً بعلوّهم ، هذا فضلاً عن مقام المملكة الذي يستلزم من كلّ مسلمٍ - وليس فقط السعوديين - أيّاً كان موقعه أن يمنح ولاءه لها ويعتزّ بها ، فهي بلادٌ مهد الرّسالة والحرمين، وعلى أرضها تقوم في هذا العصر دولةٌ إسلاميّةٌ .

* **المقوّم الثاني : (بناء الشرعيّة) :**

الشرعيّة هي الأساس الذي يُبنى عليه المقوّم الأوّل ، وهو الانتماء والولاء للدولة ، فيكون ولاءً حقيقيّاً عميقاً ثابتاً، وتتحقّق الشرعيّة بأن تستند السلطة إلى حجة مقنعة للشعب في صحّة مبدئها، وإلى كفاءة موثوقة في أداء هذه السلطة من خلال شخصيّة قائدها أو مؤسّساتها ، وإلى توحيد مناط الشرعيّة ومن ثمّ الولاء ، ولا يتحقق هذا التوحيد إلا بأن تكون شرعيّة الدولة مهيمنةً على مناهج المؤسسات الأهليّة من نقاباتٍ وجمعيات ونوادٍ ونحوها .

ويتأكّد هذا الأمر في مجتمع الجزيرة العربيّة الذي هو بخلاف ما يتصوّره الكثيرون، الذين يرون سهولة استتباع أفراده نتيجة الأميّة والفقر وكثرة الحروب آنذاك التي تجعل الغلبة بالسّيف – فقط – سبيلاً للسيطرة . . . إنّ مجتمع الجزيرة العربيّة بخلاف هذا التصوّر فهو بحكم فطريّته ، والمنهج الإسلامي الذي تقوم عليه حياته وطبيعته التساؤليّة الملحّة ، لا تنقاد نفسه إلا لسلطة يثق من خلال حساباته أنّ بها حفظ مصالحه ورعاية حقوقه الدينيّة والدّنيويّة ، ويمكن –هنا– أن نستشهد بتأملات الوالي التركي على عسير في أوائل القرن الرابع عشر الهجري سليمان شفيق باشا حيث يقول في مذكّراته : « إنّ من طبع البشر عامةً وسكان الجزيرة العربيّة خاصةً أن يقيموا وزناً عظيماً لمن كان صادقاً في قوله ، موثوقاً في عمله، فإذا كان السّيف في بعض المواقف قاهراً فإنّ إصابة المحز في قولٍ وإصابة الغرض في التدبير كثيراً ما يكون ساحراً .

والناس لا يذعنون للضّرب والبطش فقط، بل ينقادون أكثر لما فيه حفظ مصالحهم البشريّة المشروعة ، ولما يرجون أن يحيوا به حقوقهم الضّائعة .

والناس في الحياة البدويّة شديدو الإحساس دقيقو الشّعور ، وما من

بدويٍّ إلا وهو مدركٌ تمام الإدراك وواقفٌ تمام الوقوف على سياسة بلاده والمصالح الحقيقيّة لوطنه ، ومراقبٌ بعين اليقظة لما يبدو من حكّامه من أفعال وحركات، فيحك الأوامر التي يتلقّاها بمحك الانتقاد والاختبار حتى يميّزً بسرعةٍ عظيمةٍ مواطن الضعف والقوّة منها »[1] .

ويختم سليمان باشا تحليله بالنتيجة : « إنّ الأمراء الذين يجهلون هذه الحقائق في جزيرة العرب أو يهملون العمل بها تكون عاقبتهم الخذلان والفشل، وأمّا الذين يدركون سرّ هذه الحقيقة المهمّة فما برحوا مؤيّدين بالنصر والتوفيق »[1] .

ومن هذه النقطة التي انتهى إليها سليمان شفيق باشا نمسك الخيط في الحديث عن الشرعيّة التي أقام عليها الملك عبد العزيز دولته، فحالفه النصر والتوفيق دون الآخرين الذين كان نصيبهم الفشل والخذلان .

جعل الملك عبد العزيز عماد شرعيّة دولته قيامها على الإسلام :

– لا من خلال صياغات تأويليّة منحرفة للإسلام هدفها الانحراف بالدين عن غايته الصحيحة إلى أهدافٍ ضالّةٍ مصلحيّة ، أو كيديّة للإسلام وإن كانت باسمه، إنما اعتمد الملك عبد العزيز الإسلام بصورته الصحيحة التي رسمتها تعاليم الكتاب والسّنة ، وفق نموذجه الأعلى الذي طبّقه الرّسول ﷺ وأصحابه من بعده [2] .

– ولا من خلال شعاراتٍ يُلوَّحُ بها ، أو موادّ تعلن في الدستور دون التزامٍ حقيقيٍّ بمنهج الإسلام .

---

(١) مذكرات سليمان باشا ، ص ٢٦ – ٢٧، الطبعة الأولى، نشر نادي أبها الأدبي .

(٢) من خطبة الملك عبد العزيز في المدينة المنوّرة : « إنّ خطّتي التي سرتُ ولا أزال أسير عليها هي إقامة الشريعة السمحة، كما أنني أرى من واجبي ترقية الجزيرة العربيَّة والأخذ بالأسباب التي تجعلها في مصافّ البلاد الناهضة مع الاعتصام بحبل الدين الإسلامي الحنيف » . انظر : الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز ، ص ٢١٥ .

إنّ الملك عبد العزيز يعلن أنّ منهجه هو تعاليم القرآن الكريم والسنة المطهّرة ، ثمّ يتبنّى هذا الإعلان في ممارسته :

- على مستوى الدولة وأنظمتها ومؤسساتها لتكون مطبّقةً للشَّريعة، محقّقةً للمصالح العامة والخاصة .
- وعلى المستوى الشخصي للقيادة ومن يمثلها بأن يكونوا على سمت لا يخل بالمروءة ولا بالعدالة التزاماً بالعقيدة السليمة ، وإقامةً لشعائر الدين ، وترفّعاً عن الدنايا الخارقة لشرف التديّن والرجولة .

واعتماد الشريعة الإسلاميّة قاعدةً للحكم ومنهجاً ، كاف وحده في إكساب الدولة أقوى شرعيّة تملكها دولته ؛ لأنّ تصوّر المسلم العربيّ وبالذات الذين أحيتْ الدعوة السلفيةً في وعيهم مفهوم الإسلام الصحيح وشموليّته للحياة – تصوّره – للشريعة الإسلاميّة أنها سبيل الفلاح في الأخرى والنجاح في الدنيا ، وأنّ مصالحه في كل الشؤون الاقتصاديّة والسياسية والاجتماعيّة متيقّنة التحقّق باعتماد هذه الشريعة يغنيه عن انتظار وعود أو بنود تؤكّد على رعاية الحريات والعدل والأمن وسائر الحقوق الإنسانيّة التي يتطلّع إليها الناس في ظلّ أيّ دولة .

ومع ذلك فقد كان الملك عبد العزيز يعلن رعايته لهذه الحقوق في خطبه ويعلنها سلوكه العملي السياسي والحياتي الذي يدرك بالنظر السّريع في هذا السلوك .

بعد دخول الملك عبد العزيز الحجاز وعفوه عن جميع المقاومين جاء عبد الحميد الخطيب وقال للملك مفسراً مقاومته مع الهاشميّين لحركة توحيد الجزيرة التي يقودها الملك عبد العزيز، قال الخطيب : « إنّ الملك حسين عندما جاء

الحجاز حارب كلّ تجديد حتى إنه لم يسمح للناس بركوب السيارات ، وأبى عليهم استعمال ساعات اليد والأكل على الكراسي ، فقلنا : إذا كان هذا حظّ البلاد من الحسين فكيف حظّها من ابن سعود وهو الذي تربّى في الصحراء ، فلمّا شهدنا ولمسنا أعمال جلالتكم الباهرة وأخذكم بأسباب تقدّم البلاد وحضارتها ، هدانا عقلنا إلى خطأ تصوّرنا »[1] .

ولمتانة هذا الأساس لشرعيّة الدولة وهو « تطبيق الشريعة الإسلاميّة » وكونه ثابتاً ملازماً للدولة السعوديّة بما هي سعوديّة فإنّ هذه الشرعيّة لم تهتزّ بموت مؤسّسها ، ولا باستحداث المؤسسات التي تنظّم أو تنفّذ سياسات الدولة ؛ لأنّ الحاكم الأعلى الساري في كيان الدولة في كلّ تحوّلاتها باقٍ ثابتٌ وهو الشريعة الإسلاميّة .

ولا مجال في الدولة التي تتبنّى الشريعة الإسلاميّة مصدراً لشرعيّتها لوجود أحزاب أو قوًى ذات توجّهات انفصاليّة مفارقة ؛ لأنّ الحزب أو القوّة إمّا أن يتبنّى الشريعة منطلقاً ومنهجاً ، فلا يكون ثمّ تميّزٌ يقتضي التكتّل المستقلّ عن الدولة وبناء شرعيّة منفصلة عن شرعيّة الدولة ، أمّا الرّؤى ووجهات النظر ، ونقد التطبيق فإنّه متاحٌ من خلال مسالكه النظاميّة والشرعيّة ، سواء تمثّل في نصحٍ للمسؤول ، أو اقتراحٍ وتَبَنٍّ لمن هو في موقعٍ تنظيميٍّ أو قضائيٍّ أو تنفيذيٍّ يتيح له هذا الإسهام ، ولكنّه يبقى في كلّ الأحوال – فرداً أو أكثر – منضوياً تحت شرعيّة الدولة وشريعتها .

وإمّا أن تتبنّى القوّة أو الحزب أساساً لشرعيّته غير الشريعة الإسلاميّة من المبادئ الوضعيّة المخالفة لها ، فيكون هنا قد خرج على الإسلام قبل أن يخرج على الدولة .

---

(١) السعوديون والحل الإسلامي ، ص ٤٢ .

وأخيراً فإنّه إذا كانت النظم الأخرى ترتكز على شرعيّة مصلحيّة متبادلة بينها وبين شعبها الذي يشعر بوجوب خضوعه لها أو التعاون معها لأنها ضمنتْ تحقيق رفاهيته وأمنه ، فإنه في الدولة التي تقوم شرعيّتها على تطبيق الشريعة الإسلاميّة يتجاوز شعور المواطن بوجوب طاعته ، وخضوعه للدولة الموقف النفعي « البراجماتي » إلى التديّن لله بتلك الطاعة والخضوع وطلب القربى من الله بها .

* **المقوّم الثالث** : (تحقيق الانصهار والاندماج الاجتماعي) :

في المقوّم الأول عرفنا أهميّة تحويل الولاءات الجزئيّة لتتوحّد في ولاء مشترك للدولة .

ولا ريب أنّ توحيد الولاء للدولة خاصة وأنه يرتكز على شرعيّة اعتمادها للإسلام الدين المشترك للجميع -لا ريب أنه- عاملٌ مهمٌّ في تحقيق الانصهار وألفة النفوس .

لكن الانصهار وإزالة التنافر الاجتماعي الذي ساد نفسيّة المجتمعات ذات الروح البدويّة، والقضاء على الانفلات وعدم المبالاة بالآخرين تحتاج جهوداً عمليّةً مكثّفةً :

- تخفّف من الفوارق الاجتماعيّة .
- وتزيل التناقض في الممارسات الاجتماعيّة .
- وترسّخ قواعد المواطنة الصالحة الجامعة .

ولأجل تحقيق هذه الأهداف التي تحقّق بدورها الاندماج الاجتماعي بين أفراد الشعب بدواً وحضراً ، متعلّمين وأميّين تحت ظلّ القيادة الموجّهة - لأجل

ذلك- عمل الملك عبد العزيز بعد ما أسّس دولته مستعيناً بالعلماء وما لديه من إمكانات من خلال قنوات عدّة، من أبرزها :

١- تكثيف الإرشاد الديني الذي لا يقف عند حدّ بيان منهج أداء الشعائر التعبّديّة من صلاة وصوم وذكر ونحوها ، وإنما يبيّن منهج العلاقات في الإسلام بين المسلم والأطراف الأخرى : علاقته بحكومته وبوالديه وبذي رحمه وبإخوانه المسلمين جميعاً ، وبيان أنّ رعاية هذه العلاقة لها موقعها الأساس في الدين ، وأنّ الإخلال بها بإساءة علاقته بإخوانه وقطعه لهم فضلاً عن التعرّض لهم بالضّرر والإفساد يفسد على المسلم دينه ، ويضيّع عليه أجور عباداته[1] .

لقد كانت الدولة تبثّ الدعاة من مختلف المستويات لتحقيق هذه المهمّة إلى المدن والأرياف وتبعثهم في جولات على البوادي .

٢- تحضير البدو وإنشاء الهجر ، وهي إحدى الخطوات العجيبة التي سلكها الملك عبد العزيز، وكانت وظلّت موضع درس وتحليل حتى الآن .

إنّ الملك عبد العزيز وهو بصدد إقامة دولة في هذه الجزيرة الشاسعة التي عماد أجزاء كثيرة منها البدو الرُّحَّل في مجاهلها على شكل قبائل متنافرة متناحرة عمادها السّلب والنهب والثأر والتمرّد ، والسمة العامة رقّة الدين ، والجهل وعدم الاستقرار ، وعدم الثبات على المواقف ، والكسل عن التزام صنائع ثابتة يكون بها قوام حياتهم ، فكّر في جمع شمل هذه القوى

(١) في الحديث : « أنّ النبيّ ﷺ سأل أصحابه : أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال : إنّ المفلس من أمّتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيتْ حسناته قبل أن يقضي ما عليه أُخذَ من خطاياهم فطرحتْ عليه ، ثمّ طرح في النار » صحيح مسلم ، كتاب البرّ والصلة ٤/ ١٩٩٧ .

المبعثرة ، والطاقات غير المسدّدة ليتّجه بها اتّجاهاً منتجاً متناغم الحركة ، متوحّد الاتّجاه ، فكانت فكرة الهجر وتوطين البدو في أماكن مهيّأة بمواردها المائيّة ، ومساكنها الطينيّة التي تقام ، وإمكانات الإنتاج فيها بالزّراعة ، وأهمّ شيء فيها تعليم أمور الدين ، وتدريس القرآن والعلوم الشرعيّة ، وما يحتاجه الناشئ لتفاعله مع الحياة تفاعلاً إيجابيّاً بعد بلوغه ، وبهذه الحركة استطاع الملك عبد العزيز -كما تقول الموسوعة البريطانيّة- « أن يحوّل التطرّف الكامن في شعبه إلى أداة لخلق [أي تكون] مجتمع غير قبلي ، أو ليصنع من المادة القبليّة تكتّلاً لأمّة شبه متجانسة العناصر »(١) .

٣- التعليم ، إحدى قنوات الانصهار التي وعى قيمها الكبرى الملك عبد العزيز في تحقيق نهضة ثقافيّة مدنيّة للدولة الناشئة ، ولقد عانى من كثير من الناس الذين ينفرون من التعليم بصورته النظاميّة التي لم يعتادوا عليها ، فضلاً عن أنّ الثقافة والمعرفة لم يكونا من العناصر المهمّة في وجاهة الشخصيّة وقيادتها للقبيلة أو الجماعة .

أنشأت الدولة مدارس التعليم الابتدائي والمتوسّط والثانوي ، ثمّ ما فوقها من مراحل ، وقد استطاع هذا التعليم نتيجة وحدة مناهجه التي ترتكز على سياسة تعليميّة واضحة الأهداف ثابتة الرّكائز ، أن يحقّق شاكلةً ثقافيّةً موحّدةً لدى شعب المملكة ناشئةً أو كباراً ، من خلال جهود محو الأميّة ، عماد هذه الشاكلة تعاليم القرآن والسنة ، والانفتاح المعرفي والحضاري على التراث الإنساني قديمه وحاضره لاستثمار إيجابيّاته في ضوء تلك التعاليم .

وهكذا انتفت في المجتمع السعودي الذي صاغه الملك عبد العزيز تلك

---

(١) الملك عبد العزيز - رؤية عالمية ، ص ٣٤٥ .

التناقضات الحادّة الواقعة في كثيرٍ من مجتمعات المسلمين بين تيّارات ثقافيّة متصارعة، أنتجها التعليم الذي تعدّدت مشاربه وتناقضت ، سواء كان في المدارس الأجنبيّة التي انتشرتْ في بلاد المسلمين ، أو من خلال ابتعاث الطلاب للدراسة في الغرب قبل أن تتشكّل لديهم أيديولوجيّةٌ ثقافيّةٌ راسخةٌ لا تخترقها السّهام الغازية .

وهكذا نتيجة نشر التعليم المرتكز على تلك السياسة ، أصبحت الثقافة الإسلاميّة القائمة على اللغة العربيّة هي البنية الفكريّة لشعب هذا المجتمع ، وهي الموجّه لحركته الحياتيّة – الرسميّة والاجتماعيّة – التي أصبحتْ بفضل هذه الثقافة متناغمةً متوحّدةً جامعةً للقلوب ، تلتقي الأفكار والرّؤى والوجهات المتنوّعة في ميدانها الفسيح ، الذي يقبل الإبداعات ويحتويها لتكون جزءاً عضويّاً في صرحها الشامخ .

فإذا حمل إنسانٌ رؤيةً مناقضةً لمبادئ هذه الثقافة سواء كان وافداً أو متأثراً بثقافة أخرى ، فإنه يشعر تلقائيّاً بمنافرة ما يحمل للجوّ العام الذي تسوده هذه الثقافة الإسلاميّة ، والتي يلتقي عليها أفراد مجتمعه ، ممّا يجعله يتّقي إفشاء هذه الرؤية حذراً من النشازيّة التي سيبدو بها في المجتمع .

٤- المواصلات ووسائل الاتصال : اهتمّ الملك عبد العزيز باستثمار ما أنجزه العلم التقني الحديث في مجال الاتصال ، لفوائده الكثيرة التي منها – ما يعنينا – وهو هنا تحقيق التقارب بين الناس ، وبناء مفاهيم مشتركة، وتقاليد متماثلة مرتكزة على الشريعة والأصالة العربيّة .

لقد كان الناس في هذه الجزيرة الصّحراويّة المترامية الأطراف كأنهم في جزرٍ منعزلة، يعيشون جموداً في تقاليدهم ، وعزلةً عن الآخرين ، مما يجعل كلّ مجموعةٍ : إقليمٍ ، أو قبيلةٍ تشكّل شخصيّة أفرادها وفق صياغةٍ

منفصلة عن صياغات الأقاليم أو القبائل الأخرى، التي لا صلة لها بها إلا أحياناً بصراعٍ مكشوفٍ ، أو بلقاءات حذرة .

سعى الملك عبد العزيز لربط أجزاء المملكة بوسائل المواصلات الحديثة : سيارات وطائرات وسكّة حديد، وبأجهزة الاتصال والإعلام، وبالذات الهاتف والإذاعة ، مما أسهم في تقارب الناس واندماجهم ببعضٍ وتوحيد همومهم .

وهكذا من خلال هذه القنوات – الإرشاد الديني، وتحضير البدو، والتعليم ، ووسائل الاتصال والمواصلات – استطاعتْ دولة الملك عبد العزيز أن تحقّق لشعب الجزيرة العربيّة الذي وحّدته سياسياً وحدةً اجتماعيةً أزال فيها بقدر كبير عوامل التنافر والتناقض، حتى أصبح هذا المجتمع أمةً واحدةً واعيةً بكلّ أساسات وحدتها وألفتها داعمةً لهذه الأساسات في حركتها .

* **المقوم الرابع** : (تحقيق المشاركة):

تفاعل الشعب مع همّ الدولة ، وشعوره بواجبه تجاهها ومن ثمّ مشاركته في بناء الدولة من أهمّ عوامل استقرارها واتّساق حركة تكوّنها وسلامة سير تطويرها السياسي .

وتتحقّق من خلال :

– التعليم الذي ينتظم أفراد المجتمع في أوّل خيوط حركة التطوّر ، ويهيّؤهم للمشاركة العطائيّة بعد التخرّج ، ويكسبهم العلم الذي يؤهّلهم لهذه المشاركة الإيجابيّة .

– إتاحة الفرص للانتظام في سلك الدولة الوظيفي في المجال المناسب للشخص.

- المزج بين هدف الدولة والهدف الاجتماعي والشخصي دون انفصام يجعل عمل الإنسان في الدولة مجرد حرفة استرزاقيّة ، كأنها ضريبةٌ يغرمها الإنسان وهو كاره لينصرف بعدها إلى عمله الخاص الذي يشعر فيه بذاته .

إنّ عمل المواطن في دولته المسلمة منطلقاً من إسلامه ، ومن ولائه لأمّته ودولته يجعل مشاركته أيّاً كانت مسؤولاً إداريّاً ، أو معلماً أو قاضياً أو موظفاً . . . تنفيذاً للغاية العليا المشتركة بينه وبين الآخرين من حوله ، وهي تحقيق رسالة الدولة التي هي رسالته ، وهي إعلاء كلمة الله ورعاية المصالح ودرء المفاسد .

حتى العمل غير الرسمي (أي الحر) ليس منفصلاً عن غاية تطوير المجتمع ، بل هو منتظم في أهداف الدولة ، ولو ناقض أهدافها العليا فإنّ من حقها بل من واجبها أن تتدخّل لتقوّمه وفق تلك الأهداف .

في هذا الإطار قام الملك عبد العزيز حينما أشاد دولته بتحقيق المشاركة الشعبيّة الشاملة ، وانتظامها في ديناميكيّة الدّولة الناشئة بشكلٍ لم يعهد في الجزيرة العربية خلال القرون السّالفة .

- فقد فتحت المدارس ، ودفع الناس إلى التعليم ، وجعلت الشهادات سبباً للالتحاق بالعمل .

- ودعا -رحمه الله- القادرين على المشاركة المباشرة في ممارسة الإصلاح وبناء الدولة في مختلف الميادين ، سواءٌ كان العمل رسميّاً أو تطوّعيّاً .

بعد دخول الملك عبد العزيز إلى مكة ، واجتماع العلماء والوجهاء به قال لهم : « إن مثل بلدكم يحتاج إلى اهتمامٍ زائدٍ في إدارة شؤونه ،

وعندنا مَثَلٌ يعرفه الناس جميعاً وهو : أن أهل مكة أدرى بشعابها . . . فما أرى لكم أحسن من أن تُلقى المسؤوليات على عواتقكم » . وطلب انتخاب مجموعة منهم وقال : « أريد رجالاً يعملون بصدق وعلم وإخلاص ، فإذا اجتمع المنتخبون وأشكل عليَّ أمرٌ من الأمور ، رجعتُ إليهم في حلّه ، وعملت بمشورتهم ، فتكون ذمتي سالمةً »[1] .

- وتلازمت حاجة المجتمع مع أفواج الخرّيجين الذين يجدون الفرص تنتظرهم في ميادين التدريس والقضاء والعسكرية ، والأعمال المهنية والإدارية في كلّ مجال ومكان .
- وأكبر عامل لإيجابيّةً مشاركة المواطن لهذه الدولة هو التّناغم بين وعي المواطن الديني الذي يُنمِّيه التعليم والإرشاد ، وبين رسالة دولته الإسلامية ، هذا التناغم حقق انسجاماً بين هموم الفرد وطموحاته وبين أهداف دولته .

بهذا المنهج السّوي استطاعت هذه الدولة الفتيّة أن تجعل مواطنيها لبنات في بنائها المتين ، وأن تعتمد على إسهاماتهم الإيجابية ، مستغنيةً عن التّعويل على الأجانب عنها ، خاصة في المجالات الحسّاسة والأمنية .

*** المقوم الخامس : (التطوير المناسب) :**

تمثل عملية التطور مشكلةً للدول الناشئة ، وبالذات للمجتمعات الإسلامية :

- فهي دولٌ تحتاج إلى تطوير شامل ، لشمول التخلف كلّ مجالات حياتها .
- ثم إنها تحتاج إلى تطوّر سريعٍ ؛ لأن تخلّفها كبيرٌ من جهة ، ولأن العالم

(١) تذكرة أولي النهى والعرفان بأيام الواحد الديان ، إبراهيم آل عبد المحسن ، ص ٣/ ١٩ ، الطبعة الأولى ، الرياض .

المعاصر « المتطور» يزداد تطوراً بشكلٍ سريعٍ .

- والمشكل الأكبر أن نموذج حركة التطوّر الماثلة أمام العالم الإسلامي هو النموذج الغربي ، وهو نموذجٌ - على الرغم من كونه يقدم نفسه بصفته النّموذج المثاليّ القدوة لكل حركة تطوّرٍ - إلا أنه خاصٌّ إقليميّاً وثقافيّاً :

* إقليميّاً لأنّ موطنه وهو القارة الأوربية ذو طبيعة مختلفة عن طبيعة المجتمعات الإسلاميّة في كثيرٍ من المقوّمات الجغرافية والبشرية والمناخيّة .

* وثقافيّاً لأنّ حركة النهضة التنويريّة التي قامت في أوربا كانت إفرازاً لمشكلاتٍ تاريخيّةٍ خاصّةٍ بها سياسيّةٍ ودينيّةٍ وفكريّةٍ .

ولقد عانتْ المجتمعات الإسلاميّة من مشكلة التطوّر في تكوينها السياسي ، وحدثتْ أزماتٌ حادّةٌ ، وأقيمتْ مشاريع انتهت بالفشل ، واضطربت الأحوال في بعض الدول بسبب التخبّط في عملية التطوير التي أخذت بها هذه المجتمعات ، فلم يهضمها الناس ، ولا تفاعلوا معها ، ولم تحقق ما كان يؤمّل منها من تطوّرٍ كانت تُوعَدُ به الشّعوبٌ ، بل إنها قادت - للأسف في بعض المجتمعات - إلى زيادة في التخلّف حينما حُطِّمت الأنساقُ التقليدية في المجتمع مِهَناً وحِرَفاً وتقاليد اجتماعيةً ، ولم تُوجد البدائل الإيجابية الناجحة في مجالات التصنيع والزراعة والمؤسّسات المدنية والنظم الاجتماعية ، التي يشعر الناس بعدم تنافرها مع قِيَمِهم ، ووفائها بحاجاتهم ، وإغنائها إيّاهم عما تركوه ، وعن استجداء الآخرين .

أمّا في المجتمع السعودي بعد أن وحّده الملك عبد العزيز ، فإن مهمّة التطوير كانت ثقيلةً مادياً لربما أكثر من أغلب المجتمعات الإسلامية الأخرى ، فهي مهمّةٌ تستهدف البدءَ من الصِّفْر تقريباً ، وهو مجتمعٌ بدون موارد قبل

ظهور النّفط ، والمهيؤون من أبنائه لقيادة عملية التطوّر قليلٌ جداً .

ولكن ، بإزاء هذا الجانب المادي الثقيل جانبٌ آخر أهمّ ، أعطى لحركة التطوّر في هذا المجتمع عنصر تفوّقها ونجاحها .

يتمثل هذا الجانب في سلامة المسلك الحضاري الذي انتهجته قيادة هذا المجتمع في تطويره متمثّلاً بـ :

- جعل الشريعة الإسلاميّة مُوجِّهَ حركة التطوّر على هدي الحديث النبويّ : « لا يكُنْ أحدكم إمّعةً يقول : أنا مع الناس ، إن أحسنوا أحسنتُ ، وإنْ أساؤوا أسأتُ ، ولكن وَطِّنُوْا أنفسكم ، إنْ أحسن الناس أنْ تحسنوا ، وإن أساؤوا أن تجتنبوا إساءتهم ، أو لا تظلموا »[1] .
- رعايتها لقيم المجتمع وحاجته ، والتدرّج المناسب الذي لا يُبطِّئُ حركة التطوّر في سيرها الذي تقتضيه المصلحة ، ولا يزيد في جرعاته بما يجعل المجتمع يشرق به ويختنق .

ولكنّ هذه الرعاية والتدرج لا تصل إلى درجة الانخذال أمام المواقف العاطفيّة ، سواءٌ تلك التي تتوجّس حذراً من كلّ جديد ، أو التي بعكسها تريد أن تندفع بحركة التطوّر بسرعة تفقد المجتمع توازنه فيضطرب .

وشواهد وعي الملك عبد العزيز -رحمه الله- بالمرتكزات السّليمة للتطوّر الشرعيّة والمصلحيّة والسننيّة ، واعتماده عليها ، في حركة التطوير ، وفي ردّ أصحاب تلك المواقف إليها ، ومحاكمتهم لها كثيرةٌ مشهورةٌ .

- جعل الإنسان هو مدار حركة التطور وتسخير كل مجالاتها الماديّة والفكريّة والاجتماعيّة والحضاريّة لخدمة هذا الإنسان حتى يحقق غاية

---

(١) رواه الترمذي في كتاب البر رقم [٢٠٠٨] وقال عنه : حديثٌ حسنٌ غريبٌ ، قال محقّق جامع الأصول عبد القادر الأرناؤوط : « وهو حديثٌ حسنٌ » . ١١/ ٦٩٩ .

وجوده عبادةً لله، وخلافةً في أرضه ، وعمراناً لكونه بما يرضيه تعالى .

- شموليّة التطوّر لكلّ المجالات لأنّ جوانب الحياة متشابكةٌ ، والاهتمام بجانب أو جوانب منها مع إهمال الجوانب الأخرى خللٌ كبيرٌ ، وقد سبّب في بعض الدّول التي أخذت به أزمات عسيرة .

لقد تواكبتْ جوانب النّهوض -في المملكة- في مختلف مرافق الحياة اقتصاديّةً وسياسيّةً واجتماعيّةً وتعليميّةً وإعلاميّةً . . . ممّا أعطاها متانةً وضماناً ضدّ الهزّات التي قد تعرض لبعض هذه الجوانب ، فتدعمها الجوانب الأخرى .

هذه هي أبرز مقوّمات التكوين السياسي التي حقّقها المجتمع السعودي الذي أشاد دولته الملك عبد العزيز بفضل اعتماده تعاليم القرآن والسّنة ، ثمّ حكمته في فقهه هذه التعاليم من جهةٍ ، ووعيه سنن الاجتماع البشري من جهةٍ ثانيةٍ ، وسداد تصوّره لمجتمعه ، وللعالم من حوله من جهةٍ ثالثة .

- حقّق هذا المجتمع من خلال تلك المقوّمات - تماسك الدولة الناشئة وسلامة سيرها التطوّري من المعوّقات والإخفاقات القاتلة ، وانصراف جميع مواطنيها نحو الحركة الحضاريّة الإيجابيّة يعمر نفوسهم إيمانٌ راسخٌ بدينهم وشريعتهم ، وولاءٌ صادقٌ لدولتهم وأمتهم ، وتفاعلٌ واثقٌ مع الدول والأمم من حولهم .

* * *

في ختام هذا المبحث أرجو من خلال إيضاح تينك النقطتين :

- عناصر التفوّق، وجوانب العظمة في شخصيّة مؤسس الدولة الملك عبد العزيز، رحمه الله.
- ومقوّمات التكوين السياسي في تحقّقها الأمثل في مسيرة التطوير لبناء الدولة السعوديّة .

أرجو أن تكون قد تجلّت أسباب التميّز لهذه الدولة بين دول العالم ، والمقام المتفرّد لها ذاتيّاً وعالميّاً؛ حيث جمعتْ خصالاً عديدةً يندر اجتماعها في دولة في عصرنا الحاضر ، ومن أبرز هذه الخصال :

* تبنّيها الإسلام شعاراً في رايتها ، وتطبيقاً لشريعته في نظامها .
* حملها مهمّة الدعوة إلى الإسلام في العالم .
* إعلاؤها شأن اللغة العربيّة « لغة الوحي » بصفتها اللغة الوحيدة للدولة وتقريرها في كلّ مراحل التعليم .
* أخذها بأسباب الرقي المدني بثقة ووعيٍ، ووضوح منهجها؛ مماجعلها تنجح في أشواط تطوّرها المتتابعة .
* شعورها بمسؤوليّتها الدوليّة :

- في الدفاع عن الإسلام وبيان وجهته في المحافل الدوليّة والتحفّظ على كلّ ما يعارضه .
- وخدمة المسلمين والدفاع عن حقوقهم دوليّاً .

* تعاونها المطلق مع المسلمين شعوباً ودولاً دون حساسيةٍ قوميّةٍ أو وطنيّةٍ فيما فيه خيرهم .
* تعاونها مع العالم كلّه لتحقيق العدل والصلاح وما فيه خير الإنسانيّة في

المنظّمات والمواثيق وغيرها .

* وتحوّلها واحة سلامٍ وأمنٍ ، وملتقى حبٍّ ووفاقٍ ، وجمعها -بنجاحٍ- بين الأصالة الأصيلةٍ ، والمعاصرة الإيجابيّة .

. . . إلى آخر السمات السامية التي تحلّتْ بها شخصيّتها نتيجة ارتكازها على النهج الإسلامي الصحيح أوّلاً ، وتوجّهها بحكمة الملك عبد العزيز ثانياً .

هذه هي الدولة التي أنشأها الملك عبد العزيز ورعاها طيلة عمره ، وظلّتْ بهذه الشخصيّة والسمات ، وما تزال موطن إعجابٍ لأناسٍ وحبٍّ وثناءٍ من آخرين ، وحسد وبغضٍ من غيرهم ، وكيدٍ وتربّصٍ أو عداءٍ صريحٍ من سواهم . والله هو الحافظ وهو الوليّ الحميد ، ، ،

obeikan.com